

## الفصل الثاني

بعض من أسباب الغنى والسطوة



## بدايات الثراء والثروة

\*\* تتعدد أسباب الثروة ، فمنها ما هو حصيلة سهر الليالي وتعب الأيام ، ومنها ما هو بالوراثة ، ومنها ما هو بالصدفة أو ما اصطلح على أنه «ضربة حظ» . . وفي حالة الدول لا يختلف الأمر كثيراً عن حال الأفراد ، فمنها أيضاً من جاهد وكافح حتى وصل إلى بر الأمان (دول جنوب شرق آسيا) ، ودول ورثت ثروتها فصانعتها وزادتها (دول غرب أوروبا) ، ودول أخرى جاءت إليها الثروة تسعى . .

ولا شك أن الولايات المتحدة الأمريكية هي أغنى دولة ، عرفها التاريخ الحديث . ولكن ماهي أسباب ثرائها الفاحش هذا؟؟ (قدرت ميزانية وكالة ناسا لأبحاث الفضاء . بأنها لو أنفقت على العالم ، لما صار فيه فقير أو جائع أو محروم) . . وإلى أي صنف تنتمي ؟

أتراها كادحة مكافحة ، اشترت الثراء بالدم والعرق والدموع؟؟ . . أم أنها ورثت كل هاتيك الأموال ؟

( أمريكا دولة حديثة ، لم تظهر جغرافيا وتاريخيا بشكل مؤثر إلا في أواسط القرن الثامن عشر ) أم أنها الصدفة والحظ الذي طار ثم حظ واستكان فسكن وعشش ثم باض على أشجارها وفوق شطآنها؟؟ . .

أيا ما كانت الأسباب ، وأيا ما كانت الإجابات ، فالنتيجة واحدة ومبهرة . والخوض في ذلك الموضوع شيق ومحبب . فهو يثير الخيال ويداعب الآمال ويريح النفوس اللاهثة . .

\*\* الذهب ، تلك السلعة البراقة الصفراء ، التي تخطف أبصار الرجال والنساء على السواء . . ذلك المعدن الذى يمتلك قوة جذب هائلة ، جذبت الأسبان وعبرت بهم بحر الظلمات (المحيط الأطلنطى) وهو البحر الذى لم يعرفوه ولم يركبوه من قبل ، ولم يروا له أبداً إلا شاطئاً واحداً من يتعد عنه ، مفقود ، ومن يرسو عليه ، مولود ، عبر الأسبان هذا البحر منجذبين إلى التبر الذى بدأ يلمع على الشاطئ الآخر . . ليس هذا فقط ، بل إن دولا دفعت إلى ساحة الحرب بتأثير إغواء وإغراء هذا المعدن . . الذى ما زالت مغناطيسيته تفعل أفاعليها بالناس .

والولايات المتحدة الأمريكية لها تجربة فريدة في الغزوات الحديثة التي تمحورت حول هذا الخام النفيس ، ففي أزمنة عدة من القرن التاسع عشر، وفي أمكنة عدة بطول البلاد وعرضها ، هاجر مئات ثم ألوف فمئات الألوف من الرجال والنساء ، تاركين ديارهم وأهليهم وكل ما لهم سعياً وبحثاً وراء ذلك المعدن ، الذى ظهرت أولى بشائر فورة تدفقه الغزير في عام ١٨٢٩ ، حين كان عدد الباحثين عنه ٥٠٠٠ فرد ، انضم إليهم في العام الذى تلاه عشرون ألفاً آخرون ، انتشروا في جنوب «جورجيا» وغربلوا كل قطرة ماء في كل جدول ، وغسلوا ورشحوا كل حفنة رمل في كل واد . . وغزوا أراضى الهندود الحمر (قبائل الشيروكيز)

وقاتلوهم وقتلوهم وطردوهم منها ، حتى لايعوقوهم عن هدفهم  
الأسمى . .

ولكن «كنوز الذهب» الأمريكية العظمى استقرت إلى الغرب أبعد من  
جورجيا كثيراً فقد وجد الذهب مستقراً وكامناً في شطآن الأنهار وفي  
الوديان وبين الكشبان والوهدات في صحراء نيفادا وجبال روكى وسفوح  
سيوكس في القمم السوداء ( بلاك هيلز) . . وفي كاليفورنيا ، بدأ عصر  
اكتشاف الذهب والاندفاعات المحمومة إليه في يناير ١٨٤٨ ، عندما  
كان «جيمس مارشال» (نجار مهاجر من ولاية نيوجيرسى) يصنع  
طاحونة خشبية تعمل بدفع الماء الجارى فى النهر ، شراكة مع «جون  
سوتر» (مهاجر سويسرى) ، وفجأة لمح النجار شيئاً يلمع فى الماء  
العالق بالطاحونة ، كان فى شكل وحجم حبة الشعير . . . وكاد  
مارشال يطير فرحاً ، وصاح فى عماله «الذهب الذهب» لقد وجدت  
الذهب ، تحت أقدامنا ، كنز الذهب . .

يقول المؤرخ «دونالد ديل جاكسون» إن ذلك ربما كان أعظم اكتشاف  
للذهب الرسوبى فى التاريخ . فعلى امتداد شريط طوله ٤٠٠ ميل من  
المجارى المائية والأنهار كان الخام الأصفر الساحر يرقد سميكاً كثيفاً قريباً  
من السطح إذ أنه قد أزيح ، أو جرفته الأمطار من قمم الجبال إلى  
السفوح الممتدة من نهر «ترينيتى» شمالاً إلى منطقة «تولومين» جنوباً .

\*\*\* « اكتشاف الذهب» عبارة قصيرة ، سافرت حول العالم فى سرعة  
البرق ، فأحدثت فى آذانه دوى الرعد ، وهاج الناس وماجوا ، وشدوا

الرحال . فلاحون وتجار وعمال ، اندفعوا في سباق محموم إلى صحراء نيفادا ليحصدون المعدن حصدا من مناجمه الكثيرة العدد ، فكان أتعس الناس حظا ، يحرز ما قيمته عدة مئات من الدولارات يوميا .

وهكذا بدأت فورة عام ١٨٤٩ ، وارتحل إلى أودية المناجم تسعون ألفاً ، إما برا بطول القارة ، أو بحراً حول أمريكا الجنوبية ، أو بالاثنين معا عبر مضيق بنما ، قادمين من المكسيك وشيلي وألمانيا وانجلترا وأيرلندا وفرنسا وإيطاليا والبرتغال والسويد والنرويج وبولندا والصين وأستراليا وهاواي (قديما قالوا إن أمريكا كعكة ، أكل منها كل العالم إلا العرب؟؟) . . تسابقت الجموع إلى كاليفورنيا وكونوا خليطا يغلي من كل الجنسيات والقوميات . وبنهاية العام حققت كاليفورنيا تعدادا سكانيا ، أهلها لأن تطلب الانضمام للاتحاد الفيدرالي كولاية قائمة بذاتها . .

استمرت فورة ٤٩ إلى عام ١٨٥٢ وربما امتدت إلى ١٨٥٧ ، إلا أن الاندفاع المحموم في الهجرة إلى الولايات المتحدة ، لم يتوقف . . لقد كانت تلك الفورة هي الأولى في مجموعة فورات متعاقبة ، استمرت حتى نهاية القرن التاسع عشر . موجة تلو موجة من الاكتشافات في كولورادو وبلاك هيلز وألاسكا ، واستمرت تجذب المغامرين إليها برغم كل الآلام والصعاب والمعاناة والإحباطات وخيبات الأمل التي كانت تعصف بهم بين الفينة والفينة .

معظم هؤلاء المغامرين والباحثين انحدروا من عائلات الطبقة الوسطى . فالفقراء لم يستطيعوا تحمل تكاليف السفر وأثمان معدات

الحفر وما إلى ذلك . وخاصة أن الأسعار في تلك الآونة ارتفعت ارتفاعاً فاحشاً . . فحسب مقاييس عام ١٨٥٠ وصل سعر الفأس والجاروف أى منهما إلى ٥٠ دولاراً ، ودسته البيض إلى ٨ دولارات ورطل الدقيق إلى ٢ دولار وثمره الكمثرى غير الناضجة وكوب اللبن ، كل بدولار . في الوقت الذى كان أجر العامل فيه في الولايات الشرقية دولاراً واحداً في اليوم ( وكان الدولار يساوى ٧٠ دولاراً بسعر ١٩٩٠ ) .

\*\* وتقدر الإحصاءات التقريبية أن مناجم كاليفورنيا في الفترة من عام ١٨٤٨ - ١٨٥٧ أنتجت ما قيمته ٥٠٠ مليون دولار من الذهب الرسوبى والحام المخلوط ، وأنتجت مناجم «يوكون» حوالى ٣٠٠ مليون دولار من الرسوبى ، وأنتجت صحراء نيفادا ٣٠٠ مليون دولار من خامى الذهب والفضة معا ، في أول ١٤ سنة من بدء الإنتاج . وأعطت فورة صحارى كولوراد و٢٥ مليون دولار على أقل تقدير . وفي «كلوندايك» كان الناس يتعاون الوعاء الممتلىء ذهباً مغسولاً ومغربلاً بمبلغ مائتى دولار ، وفي كاليفورنيا اتفقت جموع الباحثين من الذهب على تحديد سقف لإنتاجه بما لا يتجاوز ٢٠٠٠ دولار يومياً ، وذلك بغرض إطالة أمد الأرباح ، ولكن أحداً لم يلتزم بهذا السقف ، إلا فيما ندر .

هؤلاء المغامرون الأوائل - ماذا كانت دوافعهم وطموحاتهم ؟؟ كيف عاشوا ؟ وكيف قابلوا تحديات المغامرة ؟ وماذا جعلهم يستمرون برغم الإحباطات التى كانت كثيراً ما تفرسهم ؟ وما هى الفائدة التى جنتها البلاد من تلك الجهود المضنية ؟؟ وهل تحولت تلك الثروات الطائلة فى

أيديهم إلى شيء له قيمة على مر الأيام؟؟ وإلى أى مدى غير هذا المعدن الأصفر من حياتهم ومن حياة الأجيال المتعاقبة في هذه البلاد الجديدة؟؟  
الإجابات على هذه الأسئلة ، على ما فيها من تشويق إلا أنها تبدو بعيدة عن مجال بحثنا هذا .

ومجتمعات المناجم ، وعلى عكس التصور العام فقد كانت مجتمعات آمنة ، مسالمة ومنظمة . واستطاعت فورة كاليفورنيا أن ترسى قواعد وأعرافا ، خلدت في كل الأزمنة ، وعممت في كل الأمكنة .

وهكذا تضيف حقبة فورة الذهب إلى الخبرات الأمريكية المتفردة ، خبرة أخرى ، ثمينة وذهبية قلما تتكرر على الأقل في الأيام المقبلة ، وما يضيف لتلك التجربة خلودها وعالميتها ، هو ذلك العنصر الإنساني الذي حفلت به . فلقد كانت مليئة بالأخطار والآلام والآمال ، بالدموع والضحكات ، بالشجاعة والمغامرة ، وختاماً فقد انتهت إلى تكديس الثروة في أيدي القلة لكي تعلق إحدى سنن الحياة الخالدة .

## اقتصاد النظريات

حاول العلماء والباحثون تنبيه المستثمرين الجدد لعلامات التحذير والإشارات الحمراء التي قد تضاء على استحياء ، لا يكاد يلحظها أحد ، منبئة عن كارثة محققة . إلا أن تلك التحذيرات لاتضمن بحال من الأحوال انتعاش السوق إذا ضمت سلامته . فانتعاش السوق أو ركوده أمر تكاد الدراسات الأكاديمية أن لا تحققه إلا بنسبة ضئيلة ، في حين يظل الأمر رهن عوامل أخرى تختلف من مجال إلى مجال آخر ، ومعظمها غير مرئي في ساعتها . فحين يشعر البعض أنهم قد حققوا قدراً كبيراً من الثروة يمنحهم الثقة في قدراتهم العقلية الفذة والمتفردة (حين تكون عادية جداً) فإن الآخرين من المستثمرين العقلاء ، يندفعون في إثر هؤلاء القمم، فيشكلون تياراً عاماً يكاد يجرف الجميع دون ما لحظة تردد أو تفكير . وهكذا يتحولون إلى جموع لا عقل لها ، أو ما يسمون «بذوى الأدمغة المغلقة» .

إن هذا الحدث بهذا الشكل (إغلاق الأدمغة) يتكرر من مكان إلى مكان ومن زمن إلى زمن ويتوارثه جيل عن جيل . ما يحدث هو أن شيئاً ما يكون جديداً ومبتكراً ، يحدث هزة في الدوائر المالية . هذا الشيء قد يكون كلمة ؟ تشيع بين الناس ، إن ذهباً كثيراً قد اكتشف على حدود

«لويزيانا» ( رغم إن هذا الأمر لم يتحقق ولم يره أحد ولكنه كان مجرد تقدير ) .

أو أن نظرية اقتصادية جديدة سوف تتبناها الحكومة بخصوص المواد التموينية وستتغير على أساسها السياسات المالية . أو أن شحنات من زهور «التيليب» الجميلة والتي تنافس في قيمتها الذهب ، سوف تتوافد من الشرق . كل هذه الأنباء المتواترة قد يندفع خلفها البعض وقد يحققون ثراء فاحشا (لأنهم الأوائل) . . ولأن النجاح يغري لذلك تجد الآخرين يندفعون خلفهم ، أملاً في أن يصيوا ما أصاب سابقوهم . وهكذا يتحول الانتعاش الاقتصادي في سوق ما إلى هروب جماعي من الواقعية العقلانية .

\*\*\* والدليل على العدوى المجنونة التي قد تهب على الأسواق انه عندما ترتفع أسعار سلعة ما بشكل جنوني ، لا تحكمها قاعدة ، فإن مجموع المشترين والذين يساهمون بقدر كبير في هذه اللعبة ، يرفضون الاعتراف بأن شيئاً ما غريباً يحدث ، وتصيهم حمى الشراء ، فترتفع الأسعار أكثر ، وهكذا حتى ينكشف الغبار عن ملهاة ساخرة . ويتشهد أحد الباحثات برواية حالة مجلة : «في عام ١٦٣٦ ، استضاف تاجر هولندي بحارا ، على العشاء في منزله وقدم له وجبة فاخرة من أسماك الرنجة والفسيح والسردين . وأثناء الأكل لمح البحار زهرة «التيليب» - وكان ثمنها آنذاك يتراوح ما بين ٢٥ ألفاً إلى ٥٠ ألف دولار بسعر أيامنا هذه - فما كان من البحار إلا أن تناول هذه الزهرة المخصصة للزينة وأكلها لتحل محل البصل في معدته . ومن ذلك

نستدل على هوس البحار ، بسعر الزهرة وليس بالزهرة نفسها (إذ أن وظيفتها عنده تتساوى مع وظيفة البصل ! ) . . ويستمر فيقول بأنه خلال حمى ارتفاع السعر ، فإن من يجروء على الإشارة إلى أن هذه الأثمان عشوائية ولا أساس لها من الواقع وأن انهيارا وشيكاً في السعر سوف يحدث ، فإن أحداً لن يستمع إليه بل قد يتهم بالخبيل والعتة .

ويؤكد أنه يحدث عقب كل رواج وانتعاش في السوق ، انهيار حاد ومفاجيء ودرامى يتمثل في تدنى الأسعار بشكل خطير وهذه النهاية الحتمية غالباً ما تكون مصحوبة بدوى وفرقة هائلة ، فالجميع يتسابقون في البيع هرباً من الخسارة ، وبشكل أكثر كثافة من سعيهم خلف الربح ، وهذا ما يضيف ويبالغ في حجم الخسائر . . ولم يكن هناك في وقته أذكى ولا أعقل من العالم النابه السير «إسحاق نيوتن» - مكتشف الجاذبية الأرضية - والذي خسر مبلغ ٢٠ ألف جنيه استرليني في انهيار عام ١٧٢٠ - ( وهو ما يعادل قرابة المليون دولار بالأسعار الحالية) . وسرعان ما ينسى أبناء الجيل الجديد ، المحاذير التي وقع فيها آباؤهم . وهكذا تتكرر المأساة كل زمن .

إلا أن الثابت أن فترة الانتعاش والرواج ، حتى وإن كانت بغير أساس سليم ومتمين ، إلا أنها تعتبر حلقة في سلسلة التطور الاقتصادي وإليها يعود الفضل في بناء المدن وتمهيد الطرق وإقامة المشاريع والمصانع وتشغيل الأيدي العاملة ، وإجمالاً ، تغيير وجه الحياة .

فإذا حدث الانهيار المتوقع في أسواق المال فإن ما تم إنجازه يستأهل المغامرة .

وهكذا فإن الذين يملكون المال هم أكثر من غيرهم عرضة للسعادة  
الغامرة والزهو بأنفسهم وهم أيضاً الأكثر عرضة لأقصى درجات الإحباط  
والمرارة . وباختصار فإن الأثرياء جداً ليسوا بالضرورة الأذكىاء جداً  
ولكنهم حتماً الأكثر حظاً .

## أمير نيويورك غير المتوج .. «دافيد روكفلر»

هو الأب الروحي لكل البنوك الامريكية والأمير غير المتوج لنيويورك وأخيراً هو رئيس حكومة الظل التي تشارك بالتوجيه من نيويورك في مقابل حكومة السلطة التي تشرف على التشريع والتنفيذ من واشنطن ، إذن هو واحد من أهم أقطاب النخبة المهيمنة في الولايات المتحدة . مكتبه يقع في الطابق الخامس والثلاثين من مبنى بنك «تشيزمانهاتن» الذي تملكه أسرة «روكفلر» وهو يقع وسط «وول ستريت» - حي المال والأعمال في نيويورك - ويحتل المكتب قلب المبنى كله بما فيه صندوق الخرسانة المسلحة الذي يدور حول المصاعد وهو يشكل في وسط المكتب كتلة ضخمة هي نقطة الاركاز التي تحيط بها بقية المكتب وهي دائرة عريضة لاتقل مساحتها عن ثلاثمائة متر مربع ، وفي نقطة وسط هذه الدائرة العريضة مائدة قديمة من الطراز الإنجليزي للقرن السابع عشر ورائها مقعد واحد لصاحب المكتب ومقعد في مواجهته لزائره ثم مائدة صغيرة من نفس العصر والطراز عليها جهاز تليفون واحد وهذا كل ما في قاعة المكتب من أثاث . والأثاث في كل الأحوال لا يخطف البصر ولكن ما يدهش فعلاً هو مجموعات اللوحات التي تغطي الجدران وتتغير كل سنة فهي في إحدى السنين لروائع الفن الايطالي وهي في سنة ثانية لروائع

الفن الفرنسى وفى سنة ثالثة لروائع الفن الأسبانى . . وهكذا . ونحت مستوى مجموعات اللوحات توجد موائد أو رفوف تدور مع القاعة حيث تدور وهى أيضاً مجموعات رائعة من فنون النحت تتغير بدورها كل سنة . وناقذة المكتب تطل على تمثال الحرية ، حمام المكتب جدرانه مغطاة بمجموعة استكشاثات بتوقيع «بيكاسو» لايمكن أن تقل قيمتها عن ثلاثة ملايين دولار فى حين تقدر مجموعات المكتب كلها فى حدود مائة مليون دولار .

ولأن أسرته تسيطر على أكبر البنوك فى أمريكا «تشيز مانهاتن» و«ناشيونال سيتى» وعشرات غيرها فإنه أصبح «بابا» البنوك الأمريكية ، ولأنه كذلك ولأن معظم البنوك وأكبرها مركز فى «نيويورك» (العاصمة المالية للولايات المتحدة) فإنه أصبح «أمير» نيويورك غير المتوج . . يقول «دافيد روكفلر» : ( كان أول درس تعلمناه فى جو الأسرة أن أكبر قدر من النجاح يرتبط بأقل قدر من الكلام ، كلما تكلمنا أكثر كشفنا من مواقعنا رقعة أوسع وكلما كشفنا المزيد من مواقعنا كلما ضاقت أمامنا مساحة الحركة وحرية التصرف . ميدان المال فيه كثير من ميدان الحرب خصوصاً بالنسبة للسرية والمفاجأة وسرعة الحركة بالفعل أو برد الفعل ) .

وقصة « دافيد روكفلر» - مثل كثيرين غيره - هى قصة ظهور ونمو القوة الأمريكية . كان جده «جون روكفلر» مولودا لمهاجر ألمانى تزوج من مهاجرة اسكتلندية ، وكان هذا المهاجر الألمانى «وليام روكفلر» نوعا غربيا من المهاجرين ، ادعى فى فترة من فترات حياته أنه طبيب وراح يعالج مرضى السرطان بالشعوذة والدجل ، ثم دخل السجن متهما

باغتصاب شابة صغيرة السن ، وكانت زوجته المهاجرة الاسكتلندية هي التي حفظت البيت ورعت الأولاد ووجدت وظيفة لابنها «جون روكفلر» ككاتب حسابات في إحدى الشركات . وكلفته شركته يوما أن يدرس الاحتمالات الاقتصادية لمساحة شاسعة من الأرض في ولاية بنسلفانيا حصلت عليها الشركة بالتوسع على حساب إحدى قبائل الهنود الحمر ، وذهب «جون» وإذا هو يكتشف في الأرض بترولاً ثم إذا هو يجعل الاكتشاف لنفسه بوضع اليد ثم يجد نفسه صاحب بئر بترول ثم حقل بترول ثم مجموعة حقول بترول وأصبح مليونيراً في سنوات معدودة ، وراح يتوسع وساعده على التوسع امتداد شبكات الصكك الحديدية ، ثم أن «هنرى فورد» كان قد صنع محرك السيارة ، وراح روكفلر يتوسع أكثر وتوصل إلى محصلة خبرة كانت فيما بعد أساس علم الإدارة الحديث ومؤداها أنه في حاجة إلى مساعدين كثيرين أكفاء وموثوق بهم ، ثم كانت القاعدة التي استرشد بها هي «أن الإدارة لا علاقة بها بالملكية» وأن المالك حين تتسع مصالحه يحتاج إلى مديرين من أعلى طراز ، ثم أن الملكية قضية والإدارة قضية أخرى .

وقفز «جون روكفلر» بمصالحه من الشمال إلى الجنوب ، من الولايات المتحدة إلى امريكا اللاتينية لاهثاً وراء مواردها المعدنية يحصل فيها على امتيازات واحتكارات ساعدته عليها «مهارته» في رشوة أعضاء الكونجرس ليصدروا له ما يشاء من تشريعات ، ثم استطاع تعزيز ذلك بقسوته الشديدة في استغلال امتيازاته واحتكاراته الخارجية بأقصى قدر من العنف ضد السكان المحليين ، وفي هذا كله كان «جون روكفلر»

يدافع عن نفسه ضد الذين هاجموا أساليبه في الحصول على الثروة بقول ماثور عنه وهو : ( إن رصيدي في البنك هو الشهادة لى بأن الله راض عما أفعله ) . .

وفي بداية القرن كانت ثروة «جون روكفلر» تقدر بألف مليون دولار فإذا حسبنا هذا المبلغ بقيمة النقود الآن فإنه يصبح مائة ألف مليون دولار على الأقل . كان «جون روكفلر» واضحاً فيما يريد ومحددأ «المال ، والنفوذ الذى يوفره المال لأصحابه» وهذا هو كل شيء . . ولعل «جون روكفلر» أراد أن يخفف عن ضميره فأنشأ مؤسسة خيرية للتعليم وأسهم فى إنشاء عدد من الجامعات تبرع لها بمئات الملايين من الدولارات وعلى أية حال فإن آلة صنع الثروة لم تكن تكف عن الدوران ، ولم يكن «جون روكفلر» وحده فارس هذا المضمار وإنما كان معه كثيرون ، كلهم اغتتموا وكلهم جمعوا ثروات طائلة واكتسبوا نفوذاً واسعاً وراء هذه الثروات الطائلة وكلهم تركزوا فى الشركات والمصانع والبنوك . أسماء مشهورة حتى الآن ومنها : «مورجان» «ميللون» «فاندربلت» «هاركنس» «كارنيجى» و«ينثروب» وغيرهم الكثير ، وكانت لهؤلاء جميعاً جيوش من المديرين والمحامين والمستشارين والدعاة وهكذا تحولت جماعات شرق الولايات المتحدة «المطل على الأطلنطى» إلى شبه مؤسسة ثم إلى مؤسسة كاملة تتفاعل مع من حولها وتبلوره واحيانا تعارضه وتتصدى له حتى صارت تركيباً اجتماعياً ومن ثم سياسياً ، فأصبح هناك ما يسمى «بالمؤسسة الشرقية» .

ولم تكن هذه المؤسسة ظاهرة مباشرة فى سلطة الحكم فى واشنطن

لكنها كانت موجودة وكان نفوذها محسوسا سواء بما تملكه مباشرة من المصالح الكبرى أو بما تشتريه في سوق السياسة من وسائل في الكونجرس أو حتى في البيت الأبيض ذاته .

ومؤسسة روكفلر كما نعرفها الآن ، جهاز ضخيم للتفكير والأفكار ونشرها داخل أمريكا وخارجها ، ومراكز للبحث والدرس وإعداد البدائل والخيارات وأقسام متخصصة في مساعدات التعليم وتطوير البيئة وتمويل بعض المشروعات العلمية التي تضع العاملين فيها على مئات النقاط الحساسة باتساع العالم بأسره . ويفتح هذا الجهاز الضخم كل نوافذه وأبوابه لأصحاب الفكر ليحصلوا كمديرين للعقول على نفس الدخول التي يحصل عليها مديرو البنوك والشركات والمصانع .

وظل الشرق الأمريكي هو الموطن الأساسي للصناعة والمال في النصف الأول من القرن العشرين .

أصبح واضحا الآن أن الغرب الأمريكي أصبح هو الموطن الأساسي للصناعة والمال في النصف الثاني من القرن العشرين (ولأسباب عديدة أهمها سباق التسلح) وتكونت مصالح هائلة «بوينج - لوكهيد - نورثروب - روكويل - ماكدونالد دوجلاس - يوناييتد تكنولوجي - وغيرهم الكثير . . . وكان لا بد أن تكون لهذه المصالح الهائلة وسائلها في التأثير على القرار وحصلت لنفسها بدورها على ما تحتاجه من المديرين (مديري الأموال والعقول والخطط ) وأضافت إليهم مديري الاتصالات فلم يكن لها أن تترك بعدها الجغرافيا عن واشنطن عقبة تحول دون أن تكون حاضرة

باستمرار وهكذا أنشأت هذه المصالح لنفسها مؤسسات جديدة ومراكز للأبحاث .

وهكذا أصبح روكفلر والذي صبت في حجره أنهار اقتصادية وكتل مالية ضخمة جعلت منه سواء شاء أم أبى شخصا مؤثرا على القرار السياسى الذى يصدر من واشنطن ولعل هذا التأثير يتضح فى تلك الأمثلة :

المثال الأول : وهو أزمة البترول الإيرانى . . فى عام ١٩٥٢ أمم (مصدق) البترول الإيرانى . . وتم تكليف رجل من قبل المخابرات المركزية الأمريكية بالتحضير وتنفيذ الانقلاب ضد «مصدق» (وكانت وكالة المخابرات أيامها تحت رئاسة «آلان دالاس») وينجح الانقلاب ويعود الشاه ويجهض قانون تأميم البترول فتحصل شركة «جولف» الأمريكية مع شركة ستاندرد (التي تملكها أسرة روكفلر) على النصيب الأكبر فى الشركة الجديدة التى جرى تأسيسها بعد سقوط قانون التأميم ويصبح رجل المخابرات مستشارا خاصا لشركة (جولف) فى حين يصبح «دافيد روكفلر» مستشاراً سياسياً واقتصاديا للشاه وكذلك يصير بنك تشيزمانهاتن (الذى تملكه أسرة روكفلر) هو البنك المعتمد لإيداع كل عوائد البترول الإيرانى . وكان لهذا البنك بعد ذلك تأثير مباشر فى الحياة السياسية للولايات المتحدة وعلاقتها مع إيران بالتحديد .

المثال الثانى : لتأثير «روكفلر» فى السياسة الأمريكية هو ما يعرف بنادى السفارى فى افريقيا فقد كان نظام الجنرال «موبوتو» فى زائير فى أوائل السبعينات يواجه تهديدا خطيرا بسبب فساد الحكم وسوء الإدارة

وتبديد الموارد نتيجة لذلك ، وكانت مصالح أسرة «روكفلر» سواء بواسطة بنك تشيز مانهاتن أو الشركات العاملة في إطاره العام - هائلة طائلة في زائير وكان القول السارى وقتها هو أنه «إذا سقط موبوتو أفلس وراءه بنك تشيز مانهاتن» - وتجسد التهديد ضد (موبوتو) في جيش الخلاص الوطنى يقوده نائير اشتهر باسم الجنرال «بومبا» وراح هذا النائير يزحف بجيشه على مقاطعة «شابا» - وهى موطن أغنى مناجم النحاس فى أفريقيا . وكانت واشنطن ووزير خارجيتها «هنرى كينجر» تحت ضغط تفليس تدخلها الخارجى بسبب رواسب حرب فيتنام ، وكان هنرى كينجر قد عجز من قبل على الحصول من الكونجرس على اعتمادات لمقاومة النظام الوطنى فى أنجولا ، ثم فاجأت الكل أحداث زائير والخطر على «موبوتو» ، وفجأة ظهر ما أسموه «نادى السفارى» وهو هيئة لتدخل السريع المسلح أنشأتها مصر والمغرب والسعودية وإيران - وإذا بهذه الهيئة تبدأ عملياتها بالتدخل فى زائير والقضاء على حركة عصيان الجنرال «بومبا» وتثبيت الجنرال «موبوتو» على عرش زائير ، وبعدها ارتفعت أسهم بنك «تشيز مانهاتن» وبقية شركاته التى تملكها أسرة روكفلر ما بين ٣٠٠ إلى ٤٠٠ ٪ .

المثال الثالث : والبدال على أن روكفلر صار يلعب دورا مهما فى السياسة الأمريكية هو أنه بشخصه أو بالعاملين معه ، كان مبعوثا خاصا للرؤساء الأمريكين إلى مناطق التوتر وبخاصة فى محاولات حل أزمة الشرق الاوسط . ف «جون ماكلوى» كان هو المبعوث الثانى لمصر بعد الثورة (ربيع سنة ١٩٥٣) وكان ماكلوى «رئيسا لمجلس ادارة بنك

تشيز مانهاتن « ومهمته كانت هي التلويح بمساعدات أمريكية في مقابل السلام مع إسرائيل . . ولم تنجح المهمة ، أما « دافيد روكفلر » نفسه فقد كان هو المبعوث الثالث إلى مصر حاملا معه خطابا بتوقيع الرئيس « أيزنهاور » وقد تصور الرئيس « جمال عبد الناصر » وقتها أن « روكفلر » كان مهتما باستثمارات في مصر، وفوجيء حين وجده يتحدث في صميم القضايا السياسية . وحرار عبد الناصر في الصلة التي يمكن أن تربط بين أيزنهاور وروكفلر وكان عبد الناصر دائما شديدا الحساسة لما كان يسميه سيطرة رأس المال على الحكم - أما في عهد الرئيس السادات فقد كان « دافيد روكفلر » هو أكثر الرسل تردداً على القاهرة وكان يحمل معه دائما رسائل من سادة البيت الأبيض وأحيانا من سيد قصر « نيافران » ( شاه إيران ) ، وأصبح دافيد روكفلر وثيق الصلة بالرئيس السادات وكانت أهم زيارة لـ « روكفلر » إلى مصر في ٢١ سبتمبر ١٩٧٣ حين جاء لمدة يومين ، وفي هذه الزيارة طلب « دافيد » من الرئيس السادات أن يفتح في مصر فرعاً لبنك « تشيز مانهاتن » ووافق السادات على طلبه . (ويعد ذلك قام « دافيد روكفلر » بثلاث عشرة زيارة لمصر قابل الرئيس السادات في كل زيارة منها ثم التقى الاثنان بعد ذلك في كل مرة قام فيها الرئيس السادات بزيارة الولايات المتحدة ) . . لكن الدور الأكبر لروكفلر كان دوره لدى لعبه ياتقان في مشكلة فوائض الأموال العربية بعد رفع سعر البترول ، ففي سنة ١٩٧٣ وقبل حرب أكتوبر - كانت الأوضاع المالية في الولايات المتحدة في شبه ضائقة عكست نفسها في ظهور عجز في ميزان المدفوعات الأمريكي لأول مرة منذ سنة ١٩٧٣ وكان سعر الدولار متدنيا

إزاء كل العملات الأوروبية والين الياباني فضلاً عن أن المنافسة الألمانية الغربية واليابانية بدأت تشتد على السلع الأمريكية وفجأة وفي أسابيع قليلة وفي ظروف حرب أكتوبر - تضاعف سعر البترول عدة مرات ( من سبع إلى ثمانى مرات ) ولم يكن هذا الرفع ضمن الخطة العربية لاستعمال البترول ضمن أسلحة الحرب ، فقط هو الحظر الذي كان مقصوداً كسلاح رئيسى ، وبدأ الرفع الأول وكان منطقياً فالحظر سوف يخلق ندرة فى السوق ترفع السعر ، لكن الرفع الثانى كان مفاجأة وكان الذى تولى إعلانه هو شاه إيران «محمد رضا بهلوى» . . أعلن بنفسه فى مؤتمر صحفى رفع أسعار البترول أربعة أمثال سعره السابق مرة واحدة وكان هناك معنى واحد لتصدر الشاه لهذه العملية وهذا المعنى هو أن الولايات المتحدة ومصالح «روكفلر» بالذات ليست بعيدة جداً عما يجرى . وأصبحت الأموال - مثلما كانت سلاحاً فى يد البنك - تهدد به الولايات المتحدة مصير الاقتصاد العالمى - أصبحت أيضاً سلاحاً ضد الولايات المتحدة والبنك يمكن أن يحدث دماراً شديداً فى اقتصادها وعلى حد تعبير (هنرى كيسنجر) : إن كتلة المال السائل فى يد العرب - بعد خطر ٧٣ البترولى - تشبه قطعة ضخمة من الحجر انكسرت من قمة جبل وتهدد بالسقوط .

## زعيم البيبسى كولا

\*\* إن مشاهدة العالم من خلال قاع زجاجة الكوكا كولا السميك ، أو من خلال فقاقيعها التى تتطاير على السطح - أيهما تفضل - يجعل الرؤيا تبدو مختلفة تماماً قد تكون ضاحكة أو ساخرة ولكنك تدهش عندما تعلم أنها فى أكثر الأحيان صادقة . وهذا هو سر المראה التى يتجرعها العالم بعدما أدمن مشروب الكوكا كولا السحري العجيب . . ولكن ترى هل تتغير رؤية المؤرخين ونظرتهم للتاريخ لو تناولوه بهذا الشكل . وهل من الممكن أن تقع على شىء ذى قيمة لو تأملنا مليا فى زجاجة البيبسى الكولا الثلجة «عروس ليالى الصيف وأيامه القائظة»؟! . .

\*\* مؤرخو المياه الغازية يعتقدون أن الحرب العالمية الثانية لم تكن إلا توسعات فى أسواق شركة الكوكاكولا العالمية - وإن كانت توسعات باهظة الثمن إلا أنها مؤكدة النتيجة فى امتلاكها وتفردا بأسواق العالم بلا مناس . . وسباق عام ١٩٦٠ الرئاسى لم يكن إلا استثناء فى المذاق للشعب الأمريكى بين زعيم «البيبسى» «ريتشارد نيكسون» وبين «جون كينيدي» الموالى والمخلص للـ «كوكاكولا» . أما أزمة خليج الخنازير الشهيرة بين الثلاثى كينيدي وفيدل كاسترو وخورشوف والتى كادت أن

تطلق شرارة الحرب العالمية الثالثة الذرية بين قطبي العالم آنذاك ، فكانت ( في رأيهم ) بسبب إحكام كاسترو قبضته على مزارعه المحلية للكوكا وكذلك تأميمه صناعة الكوكا كولا .

ربما كان هذا تحميلاً للأحداث بأكثر مما تحتمل ، تلك هي محاولة اختصار مجريات الأمور في مجرد زجاجة معقوفة مخصرة ، أنثوية الشكل والمنظر ، صنعت الزجاجات نفسها عام ١٩١٤ .

وعن نشأة هذا العصير المركز ، المذاب في الماء الفوار ذي النكهة التي عشقها العالم سريعاً ، وسرعان ما صارت أوسع المنتجات انتشاراً وأقواها احتكاراً للأسواق فقد قيل : لقد ولد هذا المشروب في ولاية «أتلانطا» عام ١٨٨٠ وسط حملة قومية تجارية تزفه إلى الناس على أنه «زيت الثعبان» - الدواء الفاتح للشهية والترياق الشافي لكل الأمراض العصبية - . ولقد سمي بالـ «كوكاكولا» لأنه أساساً كان يشتق من حبوب «الكولا» وأوراق «الكوكا» (نفس الأوراق التي يستخرج منها «الكوكايين» المخدر) . وقد أشيع أن هذا المشروب يذهب العقول وأنه يطلق عدوانية الزوج من إسارها نحو البيض . وقد لاقت هذه الإشاعة رواجاً وشيوعاً لدرجة أن الشركة اضطرت إلى سحب المقادير القليلة جداً من الكوكايين من تركيبة «الكوكاكولا» في عام ١٩٠٣ . ومنذ ذلك التاريخ خات التركيبة السحرية من العقار المخدر . . ويقول المؤلف إن الأقاويل تضاربت وتعددت الأساطير عن هذا المخترع الهام الذي استنبط هذا المشروب ، ولكن الجميع يكاد يجمع على أنه طيب فقير ومحبوب ،

تنحدر عائلته من جنوب الولايات المتحدة ، يدعى «جون ستيث بمبرتون» وكان مدمنا للمورفين .

أما «آسا كاندلر» فكان صيدلانياً عبقرياً ولكن بلا ضمير ، فقد التقط سر المشروب (معادلته الكيميائية ) من زميله الطبيب وحوها إلى مشروب شعبي يمكن تصنيعه على نطاق واسع ويحدث أقل الأضرار (التي كانت تصاحب الكوكايين ) - دون أن يشير من قريب أو بعيد إلى زميله مدمن المورفين والمخترع الأصلي . ولكن الأمر كان بحاجة إلى رجل مثل «روبرت وودروف» له قبضة حديدية تمسك بزمام الأمور في شركة «الكوكاكولا» الوليدة لأكثر من ثلاثين عاما (١٩٢٣ - ١٩٥٥) ، وضع خلالها مبيعات الشركة في أولى أولويات حياته وقبل أى قيمة إنسانية أخرى . وهو ما ألقى بظلال من الشك والريبة حول النجاح الباهر الذي حققه المشروب السحري .

\*\*\* يقولون في عالم الاقتصاد إن الاشتغال والانشغال بأمر الكوكاكولا - هو وباء معد ، ففي زيارة للتاريخ مدتها قرن كامل ، نجول خلالها وديان وأحراش العالم ونتأمل معا : كيف من الممكن أن يتأثر التاريخ بهذا المشروب الذي أسموه في طفولته بزيت الثعبان . إنها واحدة من عقائد الرأسمالية العلمانية البراجماتية حيث لا أخلاقيات ولا مثل عليا ولا سلطة أعلى يرجوها البشر ، اللهم إلا زيادة الاستهلاك وزيادة الانتاج وتراكم الأرباح . إنها قوة المنتج في هذا العالم الجديد .

\*\*\* إن تطور الحرب العالمية الثانية ودخول أمريكا فيها كى تصبح

بحق عالمية - صاحبه بدء انتشار مشروب الكوكاكولا عالميا واكتساحه الأسواق بشكل سرطاني مخيف . بل إن تورط أمريكا في الحرب كان أساساً لصالح هذه الشركة العملاقة وإن ضرب اليابانيين ميناء «بيرل هاربور» بالقنابل - أعطى بطريق غير مباشر ، لشركة الكوكا كولا فرصة ذهبية للسيطرة على الأسواق العالمية وتثبيت الأقدام ، إذ قتل في تلك الغارة أربعة من أكبر زراع الكوكا في هاواي - قتلوا في حقل «هيكام» فأقامت لهم شركة الكوكا كولا النصب التذكارية وانطلق صوت الناعى في العالم كله ينعى شهداء المشروب الملائكى ومن لم يعرف قد عرف . على غرار نعى اليهودى لابنه ( الأسطى كوهين ينعى ولده الأوحد «عزرا» ويصلح الساعات يوميا عدا السبت» . . . وبما أن اليابان لم تكن تضع المياه الغازية في حسابها عند اقتحام أمريكا . . واعتصام ١٩٦٠ التاريخى في قاعة طعام «وول وورث» في «جرين سبورو» في «سوث كارولينا» والذي كان غرضه الأساسى المساواة في الحقوق المدنية بين البيض والسود ، بدأ عندما رفض أربعة طلاب سود - لأغراض هضمية بحتة - سندوتشات الهامبورجر ومشروب الكوكاكولا . وهكذا ركب أصحاب الشركة موجة التذمر العنصرى التى اجتاحت الجنوب ليطالبوا بحقوق متساوية للسود المضطهدين ومشروب الكوكاكولا المضطهد أيضاً (ربما لأنه أسود اللون !!) . . تلك الزجاجة الصغيرة ، يكفيها فخرا أن العالم كله الآن يجتمع عليها مهما اختلفت أذواق اطعمتهم . . الجميع يعرفون تماماً طعم الكوكاكولا ويحبونها ، لدرجة أن الشركة حاولت خلسة في عام ١٩٨٥ تغيير معادلة التركيب بما يسمى «نيوكولا» فأحدث ذلك تقززاً عالمياً . . . وهكذا بدا أن العالم لم يفطم بعد عن هذا المشرب .

## عالم ناقلات البترول

\*\* قليلاً ما تثير انتباهنا ناقلات البترول . . فالأهم منها هو البترول ذاته ، أسعاره وكميات إنتاجه ومستقبل أيامه . . أما تلك السفن العملاقة التي تمخر عباب البحار والمحيطات ليل نهار ، والتي لولاها لما انتقلت تلك المادة الحيوية إلى خمسة أسداس العالم ، ولاندثرت حضارة اليوم الغربية تحت أكوام الجليد ، فإن تلك السفن لا تثير قضية إلا عندما تتعرض لكارثة . . والكارثة هنا لا تتجزأ .

دع ناقلة تتحطم على صخور ألaska ، مثل ما حدث مع «ايكسون فالديز» فإنها تتحول وبسرعة إلى نجم إخبارى ، وسوف تطفى شهرتها على شهرة السفينة «تيتانيك» السينائية .

إن كميات البترول الهائلة المتسربة قرب الشواطئ وخاصة بالسكان ، أو التي تزحف إلى المياه النقية ، فتعوق الشرب والرى ، بالإضافة إلى الأحياء المائية التي تنفق بالملايين ، فضيف هي والأبخرة الكيماوية المتصاعدة إلى تلوث البيئة تلوثاً آخر ثقيلاً وكثيفاً ، كل ذلك كفيل بأن يجذب الانتباه ويثير القلق والانزعاج ، فتتحرك الحكومات لاتخاذ الاحتياطات ، ويتحرك الناس فرادى ومجموعات ضد الخطر الواقع ، وقد تمتد الثورة إلى مهاجمة الناقلات ، ولكن لأنه لا بديل ، فلا طائل من

العويل . . ولأن اللحظة قصيرة ، وما ينفجر فجأة يخمد بسرعة ، هكذا فإن اللفظ المثار حول احتياطات أمن الناقلات ، يهدأ تدريجياً حتى ينسى في انتظار كارثة جديدة .

فإذا وقع المحذور مرة ثانية ، فإن الأسئلة سوف تعيد طرح نفسها من جديد .

**\*\* إن هاتيك السفن الضخمة ، تتصادم أو تتحطم أو تتهرق أو تسرب البترول أو تغرق بمعدلات غير ثابتة ، بل بطريقة عشوائية بحتة . وإن ما يزيد من تلك الاحتمالات هو خطأ في التصميم والإنشاء ، أو قواعد الأمن والسلامة المرنة أو عدم الالتزام بأصول الصيانة ، أو عدم كفاءة اختبارات الكفاءة أو التشغيل فوق الطاقة أو بعد العمر الافتراضي ، أو استعمال ملاحين غير مدربين ، أو الإبحار في ظروف مناخية غير مواتية . . فدائماً ما توزن الأرباح ضد احتياطات الأمن . . وبهذا المنطق ، منطلق الريح ، تسير الأمور . .**

**\*\* الأغلب الأعم من رحلات الناقلات ، يبدأ وينتهي في سلام . . ولكن ليس كلها ، فإن ٨٤ ناقلة سريت ٦٥ مليون جالون من البترول إلى مياه البحار والمحيطات . . وبالإحصاءات فإن بحاراً (ممن يعملون بالناقلات) يقتل كل ثلاثة أيام . .**

ومثل الطائرات ، فإن تلك السفن الضخمة ، تحمل في طياتها كل أنواع الأخطار المحتملة . ولكن صناعة السفن ليست كالصناعات الجوية ، فليس فيها تلك القواعد الصارمة الملزمة الخاصة بالأمان

والسلامة . وإنما تظل الأعراف والتقاليد ومواءمة الأغراض الريحية ،  
هى المتحكم الأساسى فى هذه الصناعة . وعلى ما يبدو فإن الاتجاه إلى  
تطبيق مزيد من الاحتياطات الصناعية الأمنية ، يسير بطيئاً جداً .  
فبالرغم من بروز ضرورة أن يصنع بدن السفينة من طبقتين مزدوجتين ،  
إلا أن شركات البترول وملاك الناقلات يعارضون هذا الاتجاه بشدة لتأثيره  
السلبى على محصلة أرباحهم . . . وإزاء ذلك فإن الكثير من الناقلات  
ذوات الطبقة الواحدة سمكا سوف تظل تحمل البترول فى المياه الأمريكية  
للعشرين سنة القادمة .

إن عالم اليوم الذى صار أكثر اعتماداً على هذا الذهب الأسود ليس له  
من سبيل إلا استعمال الناقلات ، من أجل أن يستمر مشعل الحضارة  
موقداً . . . ولقد لاحظ الباحث ، فيما لاحظته أن حرس السواحل صاروا  
أكثر تراخياً مع ملاك السفن العملاقة ، إضافة إلى فرق المفتشين على  
سلامة الأداء ومهندس الصيانة . لقد صار الكل يعمل لصالح الملاك  
الذين شكلوا قوة ضغط هائلة ، تستخدم ما لديها من نفوذ وأموال لأجل  
فرض كلمتها - والأمل معقود برجال الصناعة أن يفلتوا من دائرة التأثير  
لصالح سلامة البيئة . . . فعندما تتسرب ملايين الجالونات من البترول إلى  
مياه المحيط ، فإن كل الخطط الموضوعية لمواجهة مثل هذا الطارىء وكل  
الرغويات الطافية وكل المذيبات الكيماوية فى العالم أجمع ، لن تتمكن  
من التخلص من معظم هذا التسريب ، ولن يستطيع شىء إعادة  
عذرية الطبيعة التى انتهكت . ويبقى الحل فى المنع ، وتبقى الوقاية هنا  
هى العلاج الأوحده .

## قصة السجارة المارلبورو

ظل رجال « مايا » يدخنون السيجار الذى طوله قدم لعدة قرون ، أما هنود « الأيروكووس » فقد وجدوا أن صقورهم لا ترقص بدون التبغ إطلاقا ! أما فى مقاطعه « مونتزوما » فإن العشاء لا يتم بدون البايب . لكن هذا كله لم يكن يحدث قبل عام ١٤٩٢ حين حط كولمبوس رحاله فوق القارة الأمريكية وكان رجاله هم أول من اكتشفوا هذا النبات هناك ، وهم أول من أحرقوه واستنشقوا دخانه .

ومنذ ذلك التاريخ تقريبا تحول التبغ من مجرد أوراق نبات شيطاني ينمو فى وديان وصحراء القارة الجديدة إلى صناعة ضخمة ومعقدة رأسهاها يتعامل فى البلايين من الجنيهات الاسترلينية والتي درت عائدا ضريبيا على الخزانة البريطانية قيمته ٥ ملايين جنيه استرليني والآن فإن مبيعات الشركات الكبار بلغت فى عام ١٩٨٩ وحدها مائة مليار دولار من حصلة إنتاج أكثر من ١٧٠٠ مليار سجارة .

ومثلها لاكته الأفواه ، واستنشقتة الحناجر ، لاكته أيضا الألسن والعقول ، وحيكت حوله الحكايات والأساطير . حتى استقر التبغ فى أذهان الناس من « بادو » إلى « بكين » على إنه الدواء العجيب والعقار

المحرق . وفي السبعينات من القرن السادس عشر ( ١٥٧٠ ) فإن الطبيب المشهور « نيكولاس موناردس » الذي ترجم كتابه « المرجع في الطب » إلى الإنجليزية في عام ١٥٧٧ كان واحدا ضمن سلسلة طويلة من خبراء الطب في عصرهم الذين أوصوا بالتبغ كعقار محرق يشفى جميع الأمراض من السعال الديكى إلى السرطان وبدءا من عام ١٦٥٠ فإن الأطباء الصينيين كانوا أكثر حماسا لهذا الدواء ولتأثيره الخطير على الدورة الدموية .

وخلال قرن من الزمان من اكتشاف الأوروبيين له انتشر نبات التبغ حول الكرة الأرضية ونما في وديان إنجلترا وبحلول عام ( ١٥٧٠ ) استزرعه في بريطانيا السير ( والتر الش ) وكان آنذاك شابا صغيرا ومع بدايات القرن السابع عشر وجد التبغ في الصين ومنغوليا وسيبيريا في الوقت الذي ابتكر فيه الناس طرقا جديدة لتعاطيه كان أهمها : ( الشم في القرن الثامن عشر والبايب في القرن التاسع عشر ) وتزايدت معدلات الاستهلاك منه بالنسبة للفرد الواحد ، من أقل من جتية استرليني في العام الواحد في القرن السابع عشر إلى أكثر من جنيهن اثنين في القرن التاسع عشر ، بينما ارتفع هذا المعدل ارتفاعا حادا في القرن العشرين ووصل إلى أكثر من خمسة جنيهن استرلينية في العام نتيجة للتوسع الرهيب والتطور السريع في عمليات الدعاية والتسويق في خلال هذه الحقبة ، فبفضل إنتاج أنواع مختلفة من السجاير والآلة الإعلانية المذهلة التي ذهبت في طرق الإغراء كل مذهب تحولت السجارة من مجرد مادة تذوق أو تعود وربما إدمان ( يؤكد العلماء على إنه ليس هناك إدمان

للسجائر ولكنه الإيحاء النفسى ) إلى حالة تكشف شخصية المدخن وأسلوب حياته !! وهكذا فإن شركه مثل « مارلبورو » والتي هى الآن أكثر ارتباطا بصورة القوة الأمريكية ، كانت فى البدايات ( ١٩٢٠ ) سيجارة أنثوية وتعبر أكثر ما تعبر عن حاله الفخفة التى تعيشها المرأة المدخنة آنذاك . ثم أراد لها المسوقون فى الخمينات غير ذلك ، وبللمسة زر تحولت فى واحدة من أنجح الحملات الدعائية من الأنوثة الطاغية إلى قمة الرجولة والفتوة فصارت تعبر عن راعى البقر الذى يسرح بين الأدغال فوق فرسه وهو يصفر من فرط نشوته وسعادته سواء زهوا برجولته أو بسيجارته . وهكذا تتوغل الدراسة فى التاريخ الاقتصادى والطبى والحضارى لتختصر لنا خمسة قرون كاملة من التدخين ، ولتلقى الضوء على عادة يجمع العالم كله الآن على ضررها الفتاك ، ويعترف العالم كله أيضا برواج ممارستها بين الشعوب . وفى النهاية فإن الأطباء قد نجحوا فى خفض معدل استهلاك الفرد الأمريكى السنوى من السجائر من أكثر من عشرة دولارات إلى قرابة الخمسة . ولكن مازالت أمامهم طرق وعرة شتى عليهم أن يسلكوها .

## أمريكا - اليابان .. المواجهة

ما أن انقشع غبار الحرب العالمية الثانية عن انتصار أمريكا وحلفائها وهزيمة اليابان هزيمة نكراء تجلجها كل مظاهر الخزي والعار ، إلا وبدأت حرب من نوع آخر ، تلك هى الحرب التجارية الاقتصادية ، بين القطبين العملاقين ، أمريكا واليابان - مرة ثانية - وهى الحرب التى تزامنت مع الحرب الباردة بين أقوى دولتين فى العالم ، عسكريا - أمريكا والاتحاد السوفيتى ، وفازت بها الأولى دون أن تطلق طلقة واحدة ، بعدما انهارت الأخيرة اقتصاديا .

فإذا كان الاقتصاد هو الذى حسم الحرب الباردة العسكرية ، وأعطى أمريكا مزية التفوق العضلى المطلق ، فتراها ، ماذا هى فاعلة فى حرب ، من ألفها ليائها ، اقتصادية ، ومع خصم لا تلين له قناة ، ويبدو أنه ماهر فى فنونها وأنها لعبته التى يجيدها .

والمأزق الذى وقعت فيه الولايات المتحدة ، أن الأفق صار ينذر بجيوش أخرى تهول نحو الميدان . وخلف التلال ، قابعة . . وأخرى تمحذ سيوفها . . والمقصود بذلك هم إحدى عشرة دولة شرق آسيوية تسد عين الشمس . ترى كيف ستدور الحرب ؟؟ فإن المجتمعات

الغربية وخاصة أمريكا ، مازالوا يستعملون الوسائل الخاطئة في فهم وتصنيف الإشارات الواردة من وعن آسيا . . وفي المقابل فإن كثيرا من دول شرق آسيا ، قد حققت نموا اقتصاديا ديناميكيا رائعا ، بتجاهلها للمبدأ الاقتصادي الغربي الكلاسيكي - دعه يعمل ، دعه يمر - وتبنى استراتيجيات دعم الهياكل الصناعية واعتمدت اليابان هذا النهج منذ قرن مضى ، وحاولت تايوان وكوريا ، محاكاة اليابان ، ولكن مع الأخذ في الاعتبار ، عوامل قومية معقدة خاصة بكل منها على حدة . . غير أن السبق والريادة . كان للأولى ( اليابان ) التي دعمت هذا الدور بمزيد من الاستثمار في جنوب شرق آسيا ، مما كان له عظيم الأثر في خلق مناخ هادىء وديمقراطى فى المنطقة يشبه ما كام يسمى بـ « مجتمع شرق آسيا المرفه » قبل الحرب العالمية الثانية .

هل تستفيد المجتمعات الغربية من هذه التطورات الاقتصادية ، أم تضار؟؟ هذا يتوقف على موقفها مما يحدث ، هل تفعل كما فعلت يابان القرن التاسع عشر التى انصرفت تتعلم كل شىء عن الأنظمة القوية الناجحة ، وتغير من سياساتها حسب ما تقتضيه الظروف أو تفعل كما فعلت الصين فى نفس الحقبة ، أن تقف مترددة إزاء كل ما هو جديد ، رافضة كل تغيير ، متمنية أن تبقى الأمور على صفوها بدون تعكير .

إن نظرية دعه يعمل الغربية ، لا تناسب بأى حال ، الدول الآسيوية ، كما إنه من السذاجة بمكان اختصار كل تلك التجارب الناجحة فى نظرية بسيطة واعتبارها وصفة سحرية تشفى من جميع العلل . ولذلك فقد ظهرت فئة من الاقتصاديين الأكاديميين الذين

عكفوا على دراسة الممارسات الاقتصادية العالمية ، من خلال منظور علمى بحت ، يتجنب كل التشويشات السياسية والاجتماعية . ولكن للأسف فإن دراساتهم على قيمتها العالية لا تعرف طريقها للميديا ولا يقدرها الحكام .

النظرية الاقتصادية الحديثة القائلة بأنه جوهريا لا توجد مصالح مشتركة بين المتنافسين في مجال الأعمال ، وإنه لكى يحصل المستثمر على أعلى عائد ، تجد أن معدلات الإدخار تزداد إلى الحد الذى إما أن يؤدي إلى زيادة الصادرات أو إلى الكساد . . . وإن سوقا ما لا يمكنه أن يتحمل تنافسا إلا في حدود ما أطلق عليه التنافس المدمر .

نقطة جوهرية من نقاط الصراع بين الولايات المتحدة واليابان . . . وهى الصراع حول صناعة أشباه الموصلات ( مواد صلبة مثل الجرمانيوم أو السيليكون تتميز بخاصية مزدوجة في التوصيل الكهربائى ففى درجات الحرارة العالية ، تكون جيدة التوصيل كالمعادن ، عندما تبرد تعمل كعازل - وهى مواد أساسية في صناعة الترانزستور وتفاوت فيها أمريكا لزمان ، لوجود وادى السيليكون فيها ) . وهو الصراع الذى نجحت فيه اليابان بتجاهلها وصفات النظريات الاقتصادية على الرغم من الادعاءات المتكررة التى تبناها لوبى أشباه الموصلات فى السبعينيات فى أمريكا ، بأن اليابان لم ولن تمتلك تلك الصناعة . . . لكن ما حدث بالفعل هو أن الشركات اليابانية ، كانت من أوائل من دلفوا إلى هذا الميدان . فقد تمكن العالم الفيزيائى « ليو إيزاكى » من اختراع ما يسمى بـ « النفق ذى القطبين » وهو عبارة عن كريستالة ثنائية القطبية - فاز

بجائزة نوبل عن هذا الاختراع - وهكذا تمكن إيزاكي باختراعه هذا من أن يدفع اليابانيين إلى حلبة السباق التي كادت أشباه الموصلات أن تخرجهم منها . ومن ثم فقد أغرقت الأسواق الأمريكية ، فيما يشبه الغزو ، في أواخر الخمسينيات وطوال الستينيات ، بأجهزة الراديو الترانزستور الصغيرة ، وأعقبها أجهزة التلفزيون وغيرها من الأجهزة الإلكترونية الصغيرة ، التي حملت كلها عبارة « صنع في اليابان » . .

ولاحظ المنتجون الأمريكيون أن المنتجات اليابانية التي اعتمدت اشباه الموصلات اليابانية في تركيباتها ، قد تدنت أسعارها بطريقة غير عقلانية بل أقرب أن تكون انتحارية . وحقيقة الأمر أن الأمريكيين إذا كانوا يصرخون الآن ، فهم أول من وضع أسس تلك السياسة ، القائلة بخفض الأسعار بطريقة حادة وفيما يشبه الصدمة ، من أجل الانفراد بسوق معين وطرده جميع المنافسين منه الكل ما حدث هو أن اليابانيين كانوا أسرع وأكثر شغفا بتطبيق نظرية ، هي في الأصل أمريكية .

. وجولة أخرى من جولات الصراع الذي لا يهدأ بين القطبين العملاقين ، تبدأ في عام ١٩٨٥ حين أصبحت شرائح الـ ك . د . رام فجأة غالية ونادرة ، وهي أجزاء مهمة جدا في صناعة ذاكرة الكمبيوتر . وعزى ذلك إلى اتحاد واتفاق غريب ومريب فيما بين المنتجين اليابانيين . وجارت الشركات الأمريكية بالشكوى ولطمت الحدود ، ليس لندرة تلك الشرائح - التي رفعت أسعار أجهزة الكمبيوتر في السوق العالمية - ولكن للأسعار المتدنية جدا التي أخذت الشركات اليابانية تباع بها كمبيوتراتها وشرائحها للذاكرة . هذه الشكاوى الأمريكية ، تجمعت

بكثرة وأدت إلى اتفاق بين البلدين وقع في يوليو ١٩٨٦ . ويقضى بأن يلتزم منتجو شرائح الذاكرة اليابانيون ببيع منتجاتهم بأسعار أعلى من أسعار التكلفة التي يبلغونها ربع سنوي لوزارة التجارة الأمريكية ( وكانت تلك الأسعار تبلغ بأعلى من حقيقتها ثم تفاجأ الأسواق بأسعار أقل من سعر التكلفة ) ومنذ ذلك الحين بدأ اليابانيون يبلغون أسعارا حقيقية ، تضمن لهم هامش ربح معقولا . . وعلى الرغم من هذا فقد وجدت الكثير من شرائح الذاكرة اليابانية الرخيصة ، طريقها للأسواق العالمية . . وعندما ردت الولايات المتحدة في عام ١٩٨٧ ، بأن حصلت ما قيمته ٣٠٠ مليون دولار ، كتعريف جمركية على المنتجات اليابانية ، عندها فقط تدخل وزير الصناعة والتجارة الدولية الياباني ، فارضا المزيد من القيود التي تضمن بقاء أسعارهم أعلى من معدلها .

وختاما فقد حققت الشركات الأمريكية إنجازاً في مجال صناعة أشباه الموصلات فيما بين عامي ٨٦-١٩٩٢ ، إذ احتكرت السوق تماما بأسعار أرخص كثيرا من نظيرتها اليابانية . . ولكن الأخيرة أعادت إحكام قبضتها ثانية في عام ١٩٩٣ .

كان ذلك إذن استعراضا للسياسة الأمريكية المنتهجة في آسيا . وكيف أن هذا النهج يعتمد الاقتصاد محوره الأوحد الذي تدور حوله وفي فلكه آلياته . . كذلك هو توصيف جيد لدقائق الحرب الساخنة بين القطبين الاقتصاديين العملاقين ، التي لم يخمد أوارها بعد . وكان قدر آسيا أن تدور على أرضها مختلف أنواع الحروب الحديثة بمختلف حراراتها . .

## النظام العالمى الجديد

العالم فى نهاية القرن لم يتحرك - وكما يتصور الكثيرون - إلى وضع أكثر استقرارا وتماسكا فيما عرف « بالنظام العالمى الجديد » فعالمنا الذى تمسكت فيه الملايين مع بداية قرنه العشرين بأهداب النظريات المثالية المبشرة بالمدن الفاضلة « التى تحولت إلى خلفية تبريرية لأقسى النظم السياسية تسلطا وديكتاتورية . هذا العالم انزلق بعد الفشل الذريع لهذه التجارب الشمولية إلى حالة من السيولة والفوضى الشديدة . وهذه الحالة تطوى بالضرورة احتمالات مرعية من التقلبات والعنف والصراع ، تتغذى أساسا على حالة معقدة - وفاضحة - من عدم التوازن فى توزيع الموارد بين أطراف العالم الفقيرة ومراكزه الفنية ، وما يترتب على هذا الوضع من مشاعر شاملة من الإحباط والاحتقان والتذمر ، كتل وتكتلات .

فهنالك من يذكرنا بأن عالمنا - بعيدا عن أى شعارات - ممزق بالفعل بين فئتين من البشر بينهما هوة واسعة ، وهما الأقلية الغنية والأغلبية الفقيرة . هذا الوضع « اللامتكافئ » - خاصة فى غياب أى تقدم ملموس نحو إرساء نظام عالمى جديد متعاون وعادل - سوف يساعد على سرعة تآكل

المصدقية الأمريكية كصناعة - ثم راعية - لمفهوم النظام العالمى الجديد .  
 فتورة التطلعات التى تنهش المجتمعات الفقيرة - فى عصر الاتصالات  
 الحديثة والأقمار الصناعية وتقنيات الكمبيوتر - تمثل عامل ضغط وإثارة  
 يترجم عمليا فى صورة اضطرابات اجتماعية وصراعات سياسية تختنق بها  
 خريطة العالم الآن . وفى المقابل فإن الدول التى تمتلك أسباب القوة  
 والثراء سوف تميل إلى التكتل مع بعضها البعض . لتصبح أكثر قدرة على  
 تطوير مواطنى أقدامها فى العالم وحماية ثرواتها الخاصة . إن الولايات  
 المتحدة الأمريكية - وإن كانت ستظل الدولة الأعظم - بلا منازع - فى  
 الحاضر والمستقبل القريب إلا أنها ستجد نفسها مضطرة إلى التخلي عن  
 دورها « الكونى » كراعية للنظام العالمى لتصبح عضوا بارزا مندجما فى  
 أحد التكتلات العظمى المحتملة . كما أن التجمعات المقبلة المفترضة  
 سوف تشهد حركتين من التنافس : إحداهما داخلية « بين أعضاء الكتلة  
 الواحدة » والأخرى خارجية فى مواجهة الكتل الأخرى . إن بداخل كل  
 كتلة ستكون هناك دولة « قائدة » طموحة بشكل زائد وتفرض سطوتها  
 على أعضاء التكتل ومن ثم تسعى إلى بلورة دور حيوى خطير على  
 خريطة القرن المقبل . هذا التصور ينطبق مثلا على « الولايات المتحدة  
 الأمريكية » فى كتلة أمريكا الشمالية . وعلى « ألمانيا » فى الكتلة الأوروبية  
 وعلى « اليابان » و « الصين » فى كتلة شرق آسيا - وهو بالمناسبة يرشح  
 الصين لحمل لواء القيادة لمستضعفى العالم وهو نفس الدور الذى لعبه أو  
 تظاهره بالاتحاد السوفيتى السابق كذلك ينطبق هذا التصور على « الهند »  
 فى كتلة جنوب آسيا و « روسيا » فى التكتل الأوراسى . . وسيكون

التفاؤل بين هذه الكتل الثقيلة بالغ التعقيد ويستوعب كل الاحتمالات التي ستحددها في الأساس موازين القوى والمصالح داخل الكتل وخارجها . خذ مثلا « اليابان » فرغم أنها متورطة حتى أذنيها في منافسة أمريكا وتحديها اقتصاديا إلا أن وجود « الصين » - ذات الإمكانيات الاقتصادية والسياسية الهائلة - في قفص واحد مع اليابان « كتلة شرق آسيا » سوف يفرض على اليابان الحفاظ على جسورها الأمنية والعسكرية مع الولايات المتحدة ويشير أحد الاستراتيجيين الأمريكيين إلى أن الصراعات بين هذه التكتلات العالمية واردة تماما إلا أن الأكثر خطورة في الواقع هو الصراعات المحتملة داخل التجمعات نفسها . فكتلة أمريكا الشمالية هي الأبعد نسبيا عن احتمالات هذا النوع من الصراعات الداخلية ، في حين تبقى التكتلات الأخرى عرضة للصراعات القومية والعرقية والسياسية والاقتصادية وهو ما يراكم بالتبعية توترا فوق توتر وأزمات فوق أخرى على المستوى الدولي .

إن واقع التكتلات العالمية - وإن كان له إيجابياته - فإنه لن يساعد بالتأكيد على تجاوز الهوة المحيطة بين « المراكز » المتقدمة و « الأطراف » الفقيرة التابعة . ذلك أن منطق التكتل لا يقوم على أسس غير عملية بل فوق خلفيات صارمة من المصالح الاقتصادية والسياسية وبالتالي فإن العزلة التي تشعر بها الدول الفقيرة سوف تتعمق مع تطور أوضاع « التكتل » وهو ما سيمثل رافدا أساسيا للتوتر والإحباط وعدم التجاوب من قبل العالم الأفقر مع آليات الأوضاع الجديدة .

وعند رصد الأوضاع الديمقراطية في العلم نجد أن انتصار المفهوم

الديمقراطى الغربى وهزيمة النماذج الشمولية الجامدة - وبالأخص الشيوعية - من المؤشرات الإيجابية الباعثة على التفاؤل لكنه يسارع إلى التأكيد على أن خريطة الديمقراطية فى عالم اليوم تبدو شديدة الارتخاف والاهتزاز فتبعات التطبيقات الليبرالية داخل الدول المتخلصة حديثا من نظمها الشمولية لا تظهر منها حاليا سوى آثارها الملبية المدمرة فالفوضى الاجتماعية العارمة والارتفاع المذهل فى أسعار السلع والخدمات والصراعات العرقية والقومية وتفكك مؤسسات الدولة . كل هذه مظاهر تسجل حضورا كاسحا فى هذه الدول « كما هو الحال فى الجمهوريات السوفيتية المستقلة » .

أضف إلى ذلك دول العالم الثالث التى تتجه إلى اقتصاديات السوق بعد سنوات طويلة من تطبيق نماذجها الاقتصادية المشوهة والعقيمة . . هذه الدول جميعا تعيش حالة من عدم التوازن والانفلات التى قد تفقد شعوبها الإيوان بجدوى النموذج الليبرالى الغربى . فعلى العالم العربى ألا يدع الأمور تنفلت من بين يديه . وأن يحافظ على استمرارية سيادة المفهوم الليبرالى الغربى بشقيه السياسى « الديمقراطى » والاقتصادى « السوق الحرة » وهنا تثار نقطة هامة تمثل فى الواقع ردا على أطروحات «فرانسيس فوكوياما » فى كتابه الأشهر « نهاية التاريخ والإنسان الأخير » إذ فضلا عن فكرة وجود « سقف » للتصور البشرى و « نموذج » نهائى لهذا التطور ، مما لا يتفق مع المنطق والنظرة التاريخية فإن خطورة هذه الفكرة تكمن فى تغذيتها التلقائية لمشاعر العنجهية والاستعلاء الغربية على حساب خصوصيات وهويات الشعوب الأخرى . إذ تنطوى ضمنا

على افتراض عنصري بأن محاكاة النموذج الغربي هي الخيار الإيجابي الأوحـد الصالح للجميع . وهذه النظرة الاستـعـلائية هي بالذات أحد روافد تنشيط الحركات الأصولية المتطرفة بمختلف أنـاطـها - والتي يظهر رد فعلها في صورة كراهية مرة وهستيرية لكل ما هو غربي .

وقد ظهرت دعوة للعالم المتقدم وعلى رأسه الولايات المتحدة أن تتهياً بمجتمعاته لتكون نموذجاً مادياً ومعنوياً قابلاً للاحتواء فأوضاع المجتمعات الغربية اليوم لا يمكن أن تقدم نموذجاً من هذا القبيل . كذلك ينبغي على الغرب أن يقوى من هياكل وآليات المؤسسات الدولية « كالأمم المتحدة » ويعيد ترتيب حجراتها على أسس عادلة جديدة ، لتتمكن من لعب دور أكثر فاعلية - على مختلف المستويات لإحداث توازن نسبي بين فتى العالم الغنية والفقيرة .

وهذه الدعوة تحذر من حالة السيولة والفضوى التي تجرف العالم إلى هاوية من الأزمات والمشكلات المعقدة ويدعو هذا العالم بحرارة - وخاصة أولياء أمره - إلى محاولة « ضبط » النشاطات التي تمارسها المجتمعات والأفراد في مختلف المجالات . مثلاً فبعض النشاطات المادية والعلمية ينبغي تقييدها باتفاقات دولية وبمراعاة قواعد أخلاقية طوعية ذلك أن هذه القوة المادية يمكن أن تدمر البشرية « بشكل مباشر أو غير مباشر » كما يظهر الاستغلال الأرعن للبيئة والاستخدامات السيئة للتكنولوجيا « مجالات التسليح » . . كذلك النشاط السياسي ينبغي أن يخضع لأطر دستورية محددة . تحظى بموافقة الأغلبية فلا ينبغي الإذعان لشروط وهمية للمشاركة السياسية تجعل من الممارسات الديمقراطية

نشاطات مظهرية خادعة تتغذى على سلوكيات دياجوجية وشعارات مفرغة المضمون وحتى النشاطات الاجتماعية والشخصية ينبغي تشذيبها لتتجه بالأفراد إلى مستويات راقية من السلوك الحضارى البعيد عن الأنانية والجشع والإفراط في الاستهلاك وتجاهل آلام الغير .

فالعالم المتقدم - وهو الأكثر تخففا من الآثار السلبية للأزمات الاقتصادية هو المرشح للمبادرة إلى صناعة هذا النموذج - المادى والمعنوى المتوازن فبدون هذا النموذج المثالى سوف يظل العالم يتخبط ويترنح حتى نهاية هذا القرن . ليصافح مائة عام أخرى وهو أسير حالة خطيرة من الفوضى والاضطرابات على مختلف المستويات .